عيد الثلاثين من كانون الثاني... وأيقونته الأصبع الزرقاء

عبد الزهرة زكي

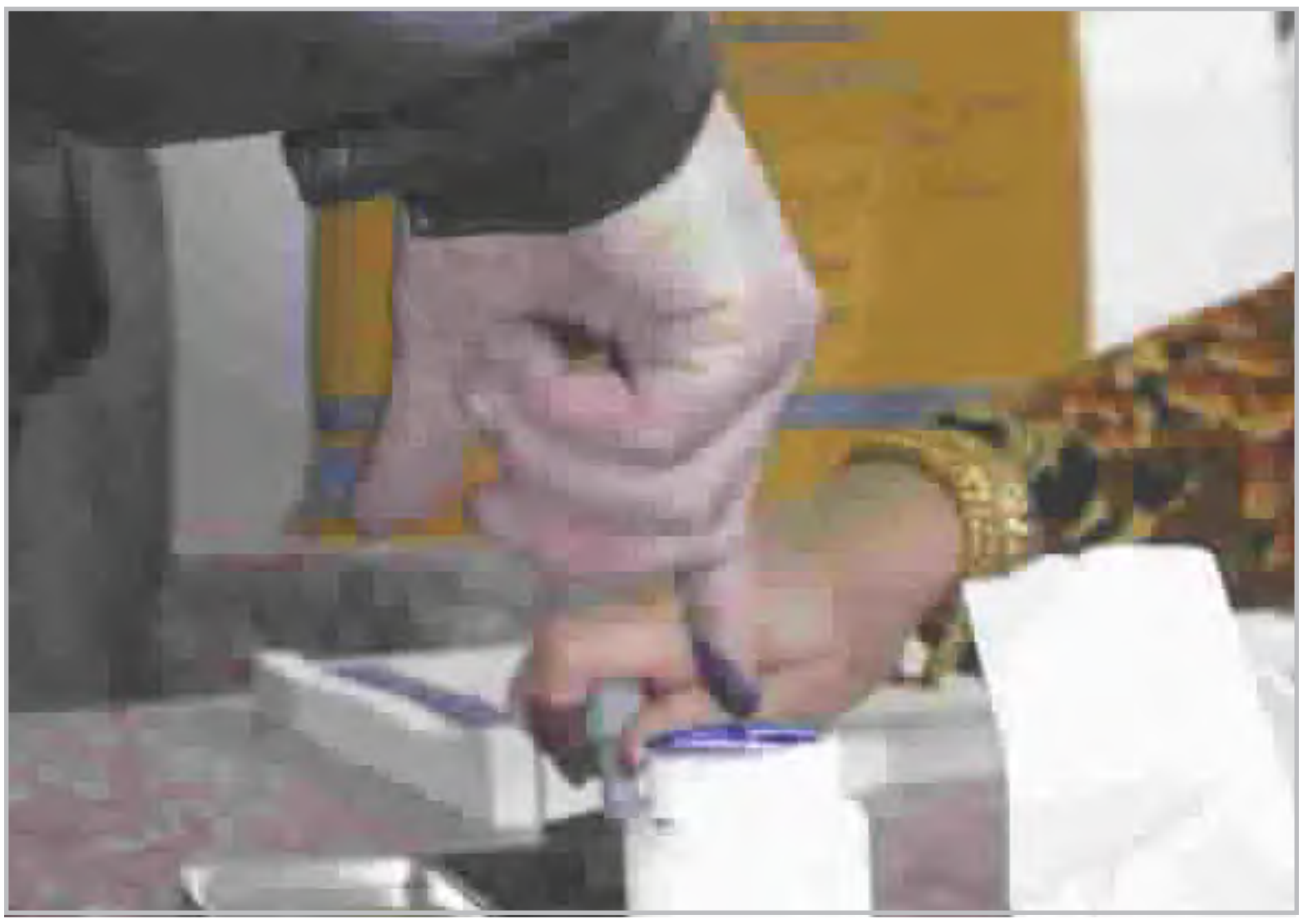

استذكر أبو جعفر الكعبي إحساساً بخجل قديم كان قد اعتراه مرةً قبل سنوات، حين خرج من استفتاء (البيعة الثانية)، تلك التي (حصد) بها صدام حسين نسبة الـ١٠٠٪ الشهيرة. قال لي، وكنا قد تعارفنا قبل دقائق في المركز الانتخابي (٨٥) صباح الأحد الماضي، كنت أشعر بالعار الذي لم أستطع التخلص منه في مواجهة كل من كان يقابلني، وأنا أغادر مكان الاستفتاء.. لم يجد تبريراً لمثل ذلك الشعور ما دام جميع من كان يقابلهم في طريق عودته كانوا قد أرغموا، هم أيضاً، على الإسهام في عرض سخيف معروف النتائج والأسباب.

تفهمت مشاعره. لقد عشتها أنا حينها أيضاً. كنت أعزو مشاعري إلى الشعور الحقيقي بالعار أمام ذاتي، قبل سواها، وتصدع كبرياء هذه الذات. كنت أيضاً أدرك الشعور الصامت نفسه في عيون الآخرين الذين كنت أقابلهم وأنا أغادر استفتاء الـ١٠٠٪.

يستعيد أبو جعفر ذلك الإحساس القديم أثناء عودتنا من المركز الانتخابي (٨٥) صباح الثلاثين من كانون الثاني. كان شعوره المفعم بالزهو والإنتشاء، بعد إدلائه بصوته، دافعاً قوياً، كما أوضح لي، لاستعادة تلك الذكرى الجارحة لسعادة هذه اللحظة التي لا يريد لها أن تزول، لحظة الانتخاب الحر.

"لقد خدعتهم"، قال، كمن يحاول ولو متأخراً مواساة نفسه، نفوسنا جميعاً، من حيف السلطة المنهارة واستفتاءاتها الهزأة.. وأضاف "كنت حملت بطاقات الاستفتاء الثماني الخاصة بأفراد أسرتي.. شاغلتهم باستظراف فدسست بطاقتين في الصندوق، بطاقتين فقط.. واحتفظت بالست الأخريات في جيبي.. لقد سرقت ستة أصوات من نسبة الـ١٠٠٪". ضحكت، فيما كان هو يتأمل بفخر كتوم، حبر الانتخابات العالق في سبابته اليمنى.

وفي أماكن لا تبدو بعيدة، كنا نسمع أصوات انفجارات ورشقات متقطعة من مدافع رشاشة. كان الشعور العميق بإنجاز حدث عظيم كافياً لأن ننشغل عن الرسائل التي لم ينفك أبو مصعب الزرقاوي عن إرسالها.. وكان لانشغال أبي جعفر بحبر إصبعه سبب مباشر آخر للانقطاع عن الرسائل السمجة والإنصراف عن ذكرى جارحة.

لم تكن الاصبع الموشومة بحبر الإنتخابات لتشغل أبا جعفر وحده، فبعد ساعات من تلك اللحظة ستكون هناك أكثر من ثمانية ملايين إصبع عراقية في الوطن وفي كل قارات العالم قد توشمت بالأزرق المقدس.

لقد قضيت نهار الأحد بين التلفزيون والشارع والهاتف. على الهاتف، كنت ألبي طلبات زملاء صحفيين في قنوات إخبارية. ومحطات إذاعية ووكالات أنباء لتزويدهم بالرأي والخبر والتعليق. فيما كنت أعود إلى التلفزيون لأرى العراق الذي امتد على كل مساحات البث لكثير من فضائيات العالم. ثم لا ألبث حتى أغادر إلى الشارع لأندمج بالعراق الحي (لا الصوري)، العراق المتلفع بسواد النساء الزاحفات إلى مراكز الانتخاب، والعراق الناهض بقامات الشيوخ التي تريد معاندة الزمان، والعراق المتوثب بخطى الشباب الساخرة من فخ الموت، والعراق النابض بأكف أطفال تسابق أكف آبائهم لرمي الأوراق في الصناديق، تلك هي رسائلهم إلى المستقبل، مستقبلهم. أحدهم لم يشأ مغادرة غرفة الانتخابات قبل أن يشترك في كرنفال التوشيم. فدس إصبعه في المحبرة فإذا هي زرقاء.

عبر الهاتف، اتصل بي زميل قبل الإفطار. وقبل أن يصبح علي بالخير، بادرني: "ها.. بشر هل ازرقت إصبعك أم بعد؟".

كانت إصبعي وأصابع أم حيدر وثلاثة من أبنائي قد ازرقت. قالت لي سجى "بابا.. إصبعك أكثر زرقة من إصبعي" قالت لها أمها "لعله غمسها بحرقة".. تفهمت مغزى قلق سجى من شحوب زرقة إصبعها. لقد شاهدت سيلاً من الناس الذي يجدون المناسبة العفوية أو يبتكرونها لإشهار أصابعهم الزرقاء، كإشارات لطمأنة أولئك الذاهبين إلى الانتخاب وتشجيعهم، أو كبيانات للافتخار والشرف، فخر الإنتماء إلى الديمقراطية وشرف المغامرة من أجلها.

كان هذا الإشهار الجمعي هو ما يدفع لحظة التصادم إلى الظهور المباغت، تصادم مشاعر الذكرى الجارحة التي انبجست فجأة في وجدان أبي جعفر، مشاعر خجل قديم بمشاعر شرف حقيقي راهن. إن إحساساً عميقاً بالإنتساب إلى شرف الاختيار والموقف هو ما يدعو إلى الفخر، وهو ما يبعث أيضاً على استحضار اللحظة الضد، لحظة القسر والإرغام و(القبول) بالإكراه. ووحده الشرف يمتلك قوة الاستحضار هذه، قوة استعادة ذكرى العار، وقد تحرر المرء من عبئها. حين نكون أسرى العار، فإننا عادة مانعصب عيوننا عن مواجهته. تلك هي ربما بعض غريزة الذات الإنسانية لحماية نفسها وتمنعها ضد وطأة الإنسحاق بالعار. ولكن حين نتحرر من العار بشرف أكبر منه، وحين لا يعود العار إلا مجرد ذكرى (ولو جارحة)، فإن للشرف من القوة ما يستطيع معها استحضار لحظة العار تلك.

أراد رجل شيخ، وهو يشهر إصبعه الزرقاء، ممازحة فتية مروا به، فقال: "غداً.. سنحتكم إلى الأصابع.. هذا اللون لن يزول". ناكده الفتية، وقد أخفوا أصابعهم الزرق في جيوبهم: "من أين لنا يا عم؟.. هذا شرف للشجعان فقط!". لكن سيدة عجوزاً، وهي تريد أن تشهر لصاحباتها اشتراكها في الانتخابات، أخذت بفرك إصبعها الزرقاء، وهي تتساءل: "كيف يزول.. أخشى أن يؤثر في الوضوء.. والوقت صلاة". فأجبنها: "حجية.. هذا بركة!".

لاحظت في التلفزيون أيضاً كثيرين من المثقفين والسياسيين العراقيين، وهم يحللون أو يعلقون في الفضائيات، يحرصون على إظهار زرقة أصابعهم، كشارة لشرف وافتخار حقيقيين. وكان د. هاشم الديوان (وهو رجل لن ينساه العراق) قد اقترح على شاشة (الفيحاء) مسيرة إشهار لزرقة الأصابع العراقية.

هكذا تتخلق الأعياد.. وهكذا ربما تتخلق أيقوناتها. عيد الثلاثين من كانون الثاني، وأيقونته الإصبع الزرقاء.

ينبغي أن نقف طويلاً أمام الأحد ٣٠ كانون الثاني ,٢٠٠٥ إن قراءة سياسية قد لا تكفي وحدها لتأمل عميق في الكيفية التي أنتج بها العراقيون هذا اليوم. ولكنها واحد من مفاتيح أساسية لفهم هذا الإنتاج. (الفهم) وحده لا يكفي أمام ٣٠ كانون الثاني. ثمة مشاعر لا يمكن الإستعاضة عنها بـ(الفهم) مع أهميته. ومن هنا تتأتى الطبيعة الاحتفالية (طبيعة العيد) لهذا اليوم. الأعياد مزيج معقد من المعرفة والمشاعر. المعرفة المجردة في التاريخ هي محض ذكرى في أفضل لحظات تجليها. تستعاد ويحتفى بها، ولكن كذكرى. بينما المشاعر المجردة تذوب وتنمحي في تيار الزمن والتاريخ. غير إن اقتران المعرفة بالمشاعر هو أشد ما يبعث على انخلاق مناسبة العيد في كل الحضارات.

كان لقدر انتخبات ٣٠ كانون الثاني أن يكون استثنائياً في أكثر من مناسبة. وتلك هي بعض مزايا هذا القدر التي تؤهله للاستمتاع بقيمته النادرة. كان هذا القدر يقدم عروضاً، بقيم ثانوية ولكن تاريخية، يخفى في ظلالها امتيازاته الاستثنائية. ولعل القول في أن هذه الانتخابات هي أول انتخابات يشهدها البلد، بهذا البذخ الديمقراطي الذي يبالغ ربما في استعراض كرمه، هو واحد من تلك العروض الثانوية ولكنه ذو أهمية تاريخية.. يقول عرض آخر إن انتخابات ٣٠ كانون الثاني هي أول انتخابات حقيقية لديمقراطية تحبو بثقة في محيط عربي وإسلامي يتذاكي في ابتكار موانعه ضد صلف الديمقراطية وشهواتها. هذا العرض هو الآخر ثانوي برغم مغازيه التاريخية. إن ما يضعف قيمة النتائج التاريخية هو تقادمها وما ينبني على هذا التقادم من تراتبات وتضاعيف تجعل من الأصل، في أحيان كثيرة، مجرد أثر تضعف من بريقه قوة إشعاع ما يترتب عليه من نتائج. القيمة التاريخية وحدها لا تكفي لصنع عيد. التاريخ صانع ذكريات.

حسناً سنقترح قراءة للثلاثين من كانون الثاني. ولتنطلق هذه القراءة من الوجه الآخر، الوجه الذي كان يريد تأجيل الثلاثين من كانون الثاني، حين بات حدثه على وشك الوقوع. ليس هذا الوجه، بالضرورة، وجهاً ضدياً. إن دعوات من اليمين واليسار التقت في لحظة مكتنزة باختلاف النيات والأهداف، في مطالبتها بإرجاء الانتخابات إلى موعد آخر بعد ٣٠/ ١ كان السعي من أجل (توافق وطني أوسع) هدفاً لمثل هذه الدعوات، وكانت دوامة العنف والدم مبررات تسوغ الهدف والفكرة معاً "هدف التوافق وفكرة الإرجاء".

في لحظات معينة، كنت أجد قناعاتي تتجاوب ومعقولية الفكرة.. لا بأس في إرجاء الانتخابات طالما هي وسيلة مقابل إنهاء دوامة العنف والدم. ثم لا تلبث تلك القناعات حتى تضعف أمام استحالة وجود من يعلن قدرته على وقف العنف، وحتى لتتمزق تلك القناعات أمام التساؤل عن مدى معقولية مثل هذه المقايضة (شراكة سياسية مقابل الأمن) أو (افتراق مقابل العنف والإرهاب).. كيف يمكن الإطمئنان إلى شراكة من يمتلك فرصة وقف قتل العراقيين، ولا يبادر إليها إلا بشرط كسب الامتياز السياسي؟ إن غياب المنطق السياسي وعدم الوضوح في فرز واصطفاف الجماعات والكيانات المختلفة، هما ما يقودان إلى لبس في الموقف وفي التفكير. فعملياً ليست هناك قوة سياسية أو دينية أو اجتماعية علنية تمتلك هذه الإرادة، إرادة إشعال العنف أو إطفائه. وما محاولة البعض لاستثمار شرارة العنف لصالحه سياسياً إلا تعبير عن انتهازية سياسية تريد استثمار الطرفين معاً: قوى الأمن من جهة وقوى العنف من جهة أخرى. وربما باتت جهات العنف نفسها تدرك مثل هذا السلوك، فبادرت جهتان أساسيتان في أعمال العنف هما الجيش الإسلامي وجماعة الزرقاوي إلى إعلان موقفها المبدئي من قضية (الاحتلال) و (الديمقراطية). حين أشارت الجماعتان في بيانين منفصلين زمنياً إلى أن مشروعهما العنفي لا يتحدد بوجود أو رحيل القوات الأجنبية الموجودة في العراق، وإنما يمتد إلى محاربة وإفشال الديمقراطية، بوصفها (صنم) الغرب الذي يراد تجسيده في أرض العرب والإسلام. وحتى قبل إعلان الجماعتين الذي حول عملهما من (صراع من أجل طرد الاحتلال) إلى (صراع من أجل السلطة)، حتى قبل هذا الإعلان، كان الجميع يذهب إلى أن لا سلطان لأية جهة من جهات العمل السياسي والدين العلني في العراق على مجاميع وبؤر العنف والإرهاب، وليس من المجازفة القول بأن الإرادة السياسية للكثير من جهات العمل السياسي والديني العلني المعارض في العراق خاضعة ولو بأشكال غير مباشرة لابتزازات تلك المجاميع، والعكس ليس صحيحاً.

في ضوء وضع كهذا، ما كان لتأجيل الانتخابات أن يفهم إلا على إنه ارتهان لإرادة الإرهاب، واندراج للعمل السياسي في السياق المعنوي الذي يريد الإرهاب وضعه فيه. لقد كفت الانتخابات، والحال هذا، عن أن تكون وسيلة، فاستحالت إلى هدف. بمعنى إنها أضحت قصداً وقصداً مضاداً، قصداً لا بد منه للعملية السياسية الجارية في البلد، وقصداً مضاداً لسياسة العنف والإرهاب. هكذا كانت المدرسة، أية مدرسة (من حيث هي مركز محتمل للانتخاب) مسرحاً للعمل العنفي خلال الأيام التي سبقت الثلاثين من كانون الثاني، وهكذا كان الذهاب إلى المدرسة (المركز الانتخابي) في يوم الثلاثين من كانون الثاني والإسهام في الانتخابات خياراً لمواجهة الإرهاب من قبل الناخبين، وقبولاً بكل النتائج المحتملة لهذا الخيار.

وكان الجهر بزرقة الأصابع والمباهاة بها في البيوت وفي الشوارع وعلى شاشات التلفزيون كرنفالاً جماعياً للتعبير عن الانتصار النفسي الكبير للمحتفلين ضد إرادة الإرهاب وقسرها وابتزازها. كان التصريح الأول للزرقاوي بعد إقفال صناديق الانتخابات "لقد أفسدنا عليهم عرس الانتخابات". كان الزرقاوي يرى في الانتخابات عرساً.. وكان يتمنى إفساد العرس.

لا مفارقة في اقتران انتصار إرادة الأمن والسلام بانتصار إرادة الديمقراطية. ليس لأن التاريخ القريب والبعيد لدكتاتوريات البلاد يقدم أمثلته الكثيرة عن تلازم قمع الحريات مع العنف والحروب فحسب، وإنما أيضاً أن البداهة التي عبر بها الكثير من العراقيين الذين استطلعت آراؤهم عبر الفضائيات ومحطات الإذاعات كانت تجمع ما بين الاثنين: الأمن والحرية. أحلام العراقيين قريبة من أعينهم. لقد علمتهم الحياة مع الدكتاتوريات إن الإطناب في الأحلام يحيلها إلى كوابيس. نحتاج طويلاً لنتعلم فن صناعة الأحلام.

لقد عبرت تصرفات الناس، في ما بينهم، بعفوية واضحة عن هذا التلازم بين الأمن والحرية.. لقد انسحب الاختلاف والتباين من التصرف والسلوك وتركز في مكان واحد هو الورقة الانتخابية.

ثمة أخوة يعززها إحساس بمصير واحد ما دام الجميع، في وجودهم الانتخابي هذا، هدفاً واحداً للعنف والإرهاب. وثمة أخوة تعزز قوتها بالتسامح والحب، وهي تسعى إلى هدف واحد: إعلاء الديمقراطية.. وثمة اختلافات لا مكان لها في التصرف والسلوك. إنها حصة الورقة الانتخابية، ميدان اختلافهم الذي يخرجون منه بأصابع موشومة بحبر الانتخابات، حبر يوحدهم: هؤلاء صنعوا الديمقراطية. هؤلاء خلقوا المستقبل.

لم أر العراقيين باسترخاء وظرف كالذي كانوا عليه في الثلاثين من كانون الثاني. قالت سيدة عجوز لموظف المفوضية، وقد طلب منها أن تحبر إصبعها، وتضع بصمتها على الورقة "ها يمه.. خاف الديمقراطية هم تطلع حبر على ورق". ضحك الرجل، وضحكنا، وفكرت وأنا أغادر، بهذا الانقلاب الغريب في استخدام العلامة. أعادت لي ظرافة هذه السيدة وحكمتها تاريخاً طويلاً من ارتياب الناس من (طبع الأصابع) وانزعاجهم من (بصمة الإبهام)، ذلك ما يذكرهم بالإفادات والتحقيق والتعهد والشك والارتياب والخوف.. لكنهم الآن يخرجون بأصابع محبرة، ويتخذون منها أيقونة لعيدهم الجديد (عيد الحرية).

أي انقلاب في استخدام العلامة؟

حين طلب مني الموظف تحبير إصبعي.. ترددت للحظة، وأنا أستعيد آخر مرة لوث فيها الحبر أصابعي العشر.. كان هذا قبل عامين بالضبط، في الحاكمية (سجن المخابرات العامة). التقط مصورهم لي صوراً بوضعيات مختلفة (مثل صور المجرمين)، وحبرت أصابعي العشر.. أخذت بصماتي.. وحين عدت إلى الزنزانة، جاهدت للتخلص سريعاً من حبر الأصابع العشر، الآن، لم يزل حبر الانتخابات على سبابتي اليمنى. ما زالت سجى تنظر إليه بحسد وهي تكرر القول: "بابا.. ما زالت إصبعك أكثر زرقة من إصبعي". وأكتفي بجواب أم حيدر: "لقد غمسها بحرقته من اكتوى".